براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي: أحمد توفيق المدني نموذجا

د. محمد غالم*

يعتبر المدني شخصية مؤثرة في الحياة الثقافية والسياسية الجزائرية منذ أن حلّ بالجزائر سنة 1925. وقد كان هذا التأثير يتعاظم مع الزمن، فقد شارك قبل انضمامه إلى جمعية العلماء المسلمين، في تنشيط العمل الصحفي والثقافي والتأليف. ساهم في تأسيس نادي الترقي بالعاصمة وإنشاء مدارس حرّة عبر التراب الوطني. كتب مقالات ذات أهمية في الصحف الإصلاحية تناولت قضايا سياسية تتصل ببلاد المغرب العربي والسياسة العربية والعالمية، أثناء الحرب العالمية الثانية، ساهم في تحرير جريدة الإصلاح[1] للعقبي وكان من الذين تجاوبوا مع الحلفاء ولَهُ رأى في بيان سنة 1943، وبعد الحرب، أصبح من محرّري جريدة البصائر لاسيما باب السياسة العالمية، ثم انتخب أمينا عاما للجمعية في الخمسينات ورئيس تحرير لسان حالها "البصائر". وقد حرر فيها مقالات افتتاحية هامّة أثناء الثورة الجزائرية. وفي سنة 1956، التحق المدني بالقاهرة، وكان خطيبا وداعية ومؤلفا ووزيرًا وممثلا للجزائر الثائرة..[2]

المدني المؤرخ:

مفهوم التاريخ: عتبر المدني التاريخ علما حديثا مثله مثل الميلي، فالكتابة التاريخية تتخذ من حيث الشكل، الأساليب الحديثة في الصياغة والتوثيق ووضع الإحالات والهوامش. ومن حيث المضمون: فإن كتب الأخبار والتراجم والمناقب لا تدخل في سجل علم التاريخ لأنها لا تتجاوز الأطر القصصية ولا ترتقي إلى مجال البحث بقصد فهم أعمق وإلمام أكبر بسنن الحياة البشرية.

– يؤكد قائلا :"ما التاريخ في نظري إلا عرض وتحليل وحكم. فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه حيّ الضمير يدرس الوثائق والمستندات ويستخرج الحقائق من بين النصوص ويستمع

* – أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر– قسم التاريخ وعلم الآثار– جامعة وهران.

بإمعان إلى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء، ثم ينظر الملابسات ويدرس المحيط فإذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعًا، أصدر حكمه عادلا، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة."[3]

– وأمَّا مادته، فلا يمكن اختزالها في وصف الأحداث الماضية.

"إنما التاريخ الحقيقي هو تجسيم العصر الماضي حتى يصبح كأنه الحاضر المشاهد وتصوير الحياة القديمة صورة حقيقية وحشر عوامل نهضتها وأسباب انحطاطها وربط الحوادث بأسبابها وبنتائجها وتأثير هاتيك الحوادث على الوسط وعلى الآداب وعلى الأخلاق، ثم إصدار حكم عام على كل عصر من العصور، وما كان له من التأثير على الحالة العامة في البلاد."[4]

– يحيل هذا التعريف إلى النظرة الوضعانية التي ميزت الأسطوغرافيا الغربية خلال القرن التاسع عشر. على الرغم من صفة الموضوعية التي تدعيها الدراسات التاريخية الوضعانية، فأن المؤرخ لا يمكنه أن يُحيي الأحداث الماضية من جديد. ما يمكن أن يقوم به هو إعادة بنائها على نحو يساعد على فهمها وتفسيرها.

– صحيح أن المؤرخ يدرس الوثائق والمستندات إذ لا تاريخ دون وثائق، يستخرج منها الحقائق التاريخية ويحلل الظروف والملابسات ليحكم على هذه الأحداث التاريخية لكن حُكْمَهُ مقيد بشروط المعرفة العلمية التي لا تنفى التوجهات الإيديولوجية. فالمؤرخ لا يمكنْهُ بأية حالة من الأحوال أن يتجرّد من تصوراته حول الإنسان والمجتمع والكون، لأن هذه التصورات كامنة في الأسئلة التي يطرحها على الماضي وفي الأجوبة التي يستخلصها من بحثه بهدف التأثير في الحاضر. إن كتابة التاريخ لا تتحكم فيها أهداف تأملية تحليلية فحسب، بل إن دراسة الماضي تنطلق كذلك من إرادة البحث عن إجابة لأسئلة قائمة في الحاضر ومن إرادة في معرفة الشروط التي تمكننا من التأثير في الواقع المجتمعي الراهن..

– ينطبق هذا الحكم على المدني –نفسه– لأن تاريخه يرمي إلى دَحْض الأحكام التي أطلقها المؤرخون الاستعماريون على ماضي الجزائر فقالوا أنه التاريخ بلا دولة ولا سيادة ولا وطن. فيرد عليهم أن للجزائر عبر التاريخ أرض وسيادة وطنية ودولة لم يتمكن الغزو الاستعماري الأوربي من طمسها. هكذا تتجلي الخلفيات الإيديولوجية في الخطاب التاريخي الاستعماري الذي يسعى إلى التأكيد على شرعية الاحتلال الأجنبي وتتجلي في الخطاب التاريخي الوطني الذي يهدف إلى تأكيد لا شرعيته.

– تسعى الكتابات التاريخية الاستعمارية إلى التأثير في الواقع المجتمعي في اتجاه القبول بالوجود الفرنسي على أرض الجزائر، أما المدني فيرمي من خلال كتبه التاريخية إلى رفض هذا الوجود وغرس فكرة الوطن والسيادة والحرية في وعي النخبة الجزائرية والشباب الجزائري... يقول في "كتاب الجزائر" "إن قراء العربية يجهلون كل شيء عن هذا الوطن، تاريخه، طبيعته، نظمه وقوانينه.. فكأنهم يعيشون في ديار غير ديارهم" أما الشباب المفرنس " بعضهم تمزق ذهنه إلى انجذاب نحو التاريخ الدخيل ونفور من التاريخ الجزائري المشوه"[5] ويقول عنه الشيخ ابن باديس "الخدمات التي يجب تقديمها للبلاد في مثل هذا الظرف هي نظير ما آختطه المدني مما يجعل الشباب عارفين لوطنهم.. فاكتشاف كل ما كان للوطن من عز وسوء هو أول عمل مثمر، والسمو بالوطن إلى كل مكانة يحمدها له العصر الحاضر والظرف الراهن أجلّ عمل فالذي يحمل كل فكرة وطنية لا يصدق فيما يقول إلا إذا خدم الوطن من الناحية التي خدمها المدني"[6].

– يقدم المؤرخون الفرنسيون في أبحاثهم تاريخا تؤطره أهداف استعمارية واضحة. أما المؤرخون الجزائريون فيقدمون تاريخًا تؤطره أهداف وطنية بنفس الوضوح. فالجزائر في نظر المدني" عربية مسلمة لن تترقي إلا بالجزائرية والعروبة والإسلام.." إنه يكتب التاريخ بمنظور وطني وحس ديني يوظفهما لإثارة النفوس وتربية الأجيال على حب الوطن والدعوة إلى التحرر من الاستعمار..

الوطنية والتاريخ:

– في التاريخ، لا يجد الباحث نفسه أمام مجال معرفي لا نظرية له، بل إن هذا المجال تشغله جملة من النظريات الاجتماعية التي وجدت لخدمة أهداف معرفية وإيديولوجية. لقد وجد المدني نفسه، حين قرر كتابة تاريخ الجزائر، أمام نظريات صادرة عن باحثين غربيين وذلك بكل ما تحمله هذه النظريات من تقليد نظري ومنهجي وبكل ما تكون في خدمة أهداف أيديولوجية. فكان عليه، وهو المثقف المتشبع بالروح الوطنية، ألا يكتفي بتمثل ما تمده به المعارف التاريخية الصادرة عن الباحثين الغربيين، بل كان عليه أولا، أن يكشف عن خلفياتها الاستعمارية ليعيد بناءها على وجه يتماشى مع أطره النظرية وخلفياته القومية.

– يلاحظ المدني أن التاريخ الاستعماري مليء بالأحكام المسبقة، تكرر الكتابات التاريخية الاستعمارية أن الجزائر قد عرفت أنواعا من سوء الحظ – فقد كانت سيئة الحظ لأنها لم

تتمكن من تمثل القيمة الحضارية للاحتلال الروماني، وسيئة الحظ حين أقلبت على الإسلام وخضعت للغزو الهلالي،كما كانت سيئة الحظ أخيرا حين تحولت إلى قاعدة للقرصنة العثمانية.

– يرد المدني على هذه المزاعم الاستعمارية التي تسعى إلى فرض تصور معين عن الجزائر وتاريخها لأن مهمة المؤرخ الجزائري في نظره تتمثل أولا وقبل كل شيء، في نقد هذا التصور حتى ولو لم يضف جديدًا على صعيد البحث وحتى ولو كان الخلاف بينه وبين المؤرخ الاستعماري مجرد اختلاف في تأويل بعض الوقائع.

– يجد المؤرخ الجزائري نفسه ومنذ البداية أمام ضرورة جادّة: كتابة تاريخ بلاده، لا لكي يدفع عنه كل تصور خاطئ فحسب، ولكن من أجل أن يبحث ضمنه عن الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها عليه بإلحاح الرهان الوطني: رهان الحفاظ على الشخصية الجزائرية ومقوماتها التاريخية. يأخذ مادته من الكتابات الأوربية وينهج نهجها لكنه يعارضها في أحكامها ومراميها الإيديولوجية.

البربر جنس لا يقبل الذوبان أو "قرطاجة في أربعة عصور":

يؤكد المدني هذه الحقيقة التاريخية التي لا تقبل النقاش في كتابه "قرطاجة في أربعة عصور" ألّفه "لنسف خرافة المغرب اللاتيني".

فالبربر على أنواعهم جنس امتاز بخصال تقوم على المحافظة التامة على كيانهم والتصلب في الدفاع عن استقلالهم وعدم الذوبان مع أي عنصر من العناصر الوافدة من أوربا. لهم اقتدار غريب على الاحتفاظ بعوائدهم وأخلاقهم ولغتهم. عاشوا نحو ثلاثة آلاف سنة تحت احتلال الأمم المختلفة لكنهم لا يزالون محافظين على كل مميزاتهم الذاتية.

– أحتك البربر –خلال تاريخهم الطويل– بالشعوب الأخرى كاليونان والفينيقيين واللاتينيين، لكنهم أقبلوا على الحضارة الفينيقية –عبر قرطاجة– دون غيرها لأن البربر في غالبيتهم جنس شرقي مثل الفينيقيين.

أخذوا عن الفينيقيين الأساليب الزراعية والأدوات الفلاحية في تطوير الزراعة وغراسة أشجار الكروم والتين وتنمية تربية المواشي كما تأثروا بنظمهم السياسية والإدارية وتبنوا جوانب من ثقافتهم. أفضى ذلك إلى قيام ممالك بربرية قاومت قرطاجة حين كانت تتجه إلى الضغط عليهم وواجهت الاحتلال الروماني.[7]

– قاوم البربر الاحتلال الروماني "لأن حكومة الرومان استعمارية بحتة .. لا تعرف البربري إلا لاستعماره واستخدامه واستخلاص الضرائب منه وتسخيره.. ولم يكن الاحتلال الروماني مقبولا من طرف البربر.. فقد كان رغم طول مدته سطحيا إذ عاش المعمرون الرومان بجانب البربر أكثر مما اختلطوا بهم .. ولم يكن للبربر من هم أثناءه إلاّ خلع النير الأجنبي.."[8]

– فالرومان في الفترة التي مكثوا فيها بشمال إفريقيا، لم يعرفوا السلم ولا الاستقرار وآقترن وجودهم في المنطقة بالثورات والانتفاضات المستمرة .. ونظرا لقوة هذه الأخيرة، فقد آنحصر تواجد الرومان بالمناطق الساحلية.

يقول المدني في هذا الصدد: "ألف البربر حياة الاستقلال القديمة التي حرمتهم إياها روما وكان الراضخون منهم للاحتلال الروماني.. يجنحون للثورة ويتذمرون .. وانتصبت حكومة بيزنطية في البلاد وكانت حكومة ظلم واعتساف أرادت أن تنزل على البربر قهرها وجبروتها فثاروا وأعادوا الثورة... وحين وقفت طلائع العرب على تخوم البلاد، كان البربر في المغرب مستقلين استقلالاً تامًا.."[9]

– فالبربر –إذن– جنس يرفض الذوبان في الأجناس الأخرى – شرقية أم غربية، يحافظ على ذاتيته، لكنه يتفاعل مع الحضارات الشرقية، يتأثر بها ويؤثر فيها، لأنه جنس شرقي مثله مثل الفينيقيين.

إلتحام الجنس البربري والجنس العربي شكل الأمة الجزائرية:

– يفسر المدني إقبال البربر على الحضارة الفينيقية أولا ثم الحضارة العربية ثانيا بالانتماء الشرقي للبربر وأن كان يعترف بعراقتهم التاريخية وخصالهم الذاتية. يقول: أنهم من العنصر السامي قدموا من آسيا، استوطنوا مصر قبل القدوم إلى المغرب" يستند في ذلك، على تشابه الملامح الجسمية بين البربر وسكان الصعيد المصري وإلى التشابه القائم بين اللغة الأمازيغية واللغات النوبية والحبشية التي تنتمي كلها إلى عائلة اللغات السامية–الحامية.

– إن القرابة الجنسية هي التي تفسر الاندماج الذي حصل بين البربر والفينيقيين. لهذا استحكمت المدنية القرطاجية في نفوس البربر غير أن الحضارة الرومانية لم تؤثر فيهم إلا تأثيرا بسيطا".

– وعند الفتح العربي "ما الذي جعل البربر يندمجون مثل هذا الاندماج وقد عهدنا هم عند اختراقنا لتاريخهم القديم، يقاومون كل احتلال مادي أو أدبي... ووَجَدْنَا الالتحام بين العرب

والبربر يعود إلى جملة من الأسباب أهمها أن كلا العنصرين من أصل سامي ولهما من أجل ذلك عقلية واحدة"[10] لم يكن العصر العربي في شمال إفريقيا عهد ظلمات كما يصوره المؤرخون الفرنسيون بل كان عهد نور وحضارة "جاء المسلمون إلى البلاد يريدون إخراجها من الظلمات إلى النور وأصبح البربر أشد رجال الجند الإسلامي.. وعصر الفتح العربي عصر تطور وانتقال في بلاد الجزائر نزعت به صبغتها الأولى واكتسبت فيه بحلتها الإسلامية العربية الجديدة، وهي حلتها النهائية التي تقف بها اليوم وستقف بها غدًا مع شعوب الدنيا"[11]

– في العصور القديمة، اكتسب البربر وحدتهم التاريخية السياسية وفي العصر الوسيط اكتسبوا وحدتهم الثقافية – الدينية بالتحامهم بالعرب الوافدين خلال الفتح وبعده مع هجرة قبائل بني هلال.. بين العربي والبربري قواسم مشتركة، "ترى العرب ينصبون خيامهم مع خيام البربر ويعيشون معهم في سهولهم وبعض جبالهم.. وهم متحدون في طرق العيش البسيطة... أثر ذلك الاعتناء في البربر تأثيرا جسيما ورأوا أنهم عند أخذهم لدين العرب أصبحوا وإياهم سواسية لا سيد ولا مسود. فأخذوا الدين وأخذوا نصيبا واسعا من اللغة.."[12]

– عند الحديث عن هجرة القبائل العربية – بنو هلال وبنو سليم – إلى المغرب، يتهم المدني المؤرخين الغربيين بالمبالغة والتشويه. صحيح أنهم آعتمدوا على معطيات تاريخية جاءت من المصادر المغاربية مثل ابن خلدون، لكن تحليلاتهم لهذه الظاهرة التاريخية كانت تصدر أساسا عن عداء للعرب صريح.

– أصدر المدني "كتاب الجزائر" سنة1931 ردًّا على الاحتفالات المئوية بالاستعمار الفرنسي، قصد فيه إبراز المقومات الثقافية التاريخية للأمة الجزائرية. فالرسالة التي يتضمنها أن هذه الأمة التي تكونت عبر التاريخ لن تتخلى عن قيمها وسيادتها وحريتها.

لا ينفى المدني النتائج السلبية لهجرة بني هلال (خراب، تراجع الفلاحة والعمران) لكنه يشير بالمقابل إلى النتائج الثقافية البعيدة المدى مثل تعريب السهول الداخلية والهضاب وما نجم عنه من توحيد ثقافي..

العصر العثماني: عهد قوّة ونظام لا قرصنة وتخلّف

– أصدر المدني كتاب "محمد عثمان باشا" سنة1937 لإماطة اللثام عن حقيقة الوجود العثماني في الجزائر وتفنيد الادعاءات الاستعمارية حول مسؤولية هذا الوجود في التخلف الاجتماعي والاقتصادي. يقول في المقدمة : "اهتمت كتابات الأوروبيين بأخبار القرصنة وبيع

العبيد والغارات المسيحية وذبح الدايات حتى أصبح قطر الجزائر من خلال تصوراتهم مغارة السفاكين وملجأ لصوصية البحر"[13] ويضيف "أعتبر الأوربيون أن الجزائر كانت تحت رحمة مليشيات النهب والفوضى والعنف بدون دفن الجثث"[14]

– تناول الكتاب في القسم الأول تسلسل الولاة العثمانيين والحوادث التي ميزت حكمهم 1516–1830 داخليا وخارجيا وتحدث عن الحركة العلمية، فعرف بمشاهير العلماء والأدباء ورجال الدين وفي القسم الثاني، عالج عصر الداي محمد بن عثمان 1766–1791 فبيّن أن الشخصية – خلافا لما تنسبه الروايات الأوروبية عن الدايات–كانت مثقفة وعادلة تتسم بالحزم في المواقف السياسية الداخلية والخارجية.

– استقرت الأوضاع في الداخل رغم بعض الانتفاضات، وعمّ الرخاء–لا بفضل أموال القرصنة بل بفضل انتعاش الزراعة والتجارة. لا مجاعات ولا أوبئة فتاكة .. حافظ على سيادة الدولة في الخارج فعقد صلحًا مع دول أوربية اعترفت بهيبته وقاوم الوجود الإسباني في وهران والمرسى الكبير. كان يشرف على القرصنة التي تقلصت مداخيلها، فلا تتعرض السفن الجزائرية في البحر إلا لسفن الدول المعادية.

– وفي القسم الثالث، نقل فيه مضامين دفتر التشريفات (هدايا الباشا للسلطان) وتوزيع غنائم البحر والهدايا الانكليزية والتنظيم العسكري في الجزائر والولايات وأموال الخزينة وسك العملة .. وفي القسم الأخير، عرض مقتطفات من مذكرات فانتوردي برادي الذي أقام بالجزائر، فوصف الحالة الاجتماعية والحياة الاقتصادية وتناول إحصاء السكان والتنظيم السياسي والعسكري... واختار خاتمة تحدث فيها عن الفظائع التي ارتكبها الجيش الفرنسي أثناء غزوه الجزائر سنة 1830 معتمدا على شهادات النقيب أحمد الشريف الزهار..

– صحيح أن الكتاب تقريظ للداي محمد بن عثمان لكنه في آخر تحليل ردٌّ للمزاعم الاستعمارية التي كانت تصف الجزائر خلال العهد العثماني على أنها بلد القرصنة والفوضى. فأبرز حقيقة القرصنة التي لا تقع إلاّ على الدول المعادية وأوضح الحالة الاجتماعية التي كانت عليها الساكنة –فقراء وأغنياء– وبين أن التعليم .. رغم تقليديته واعتماده على العلوم النقلية، كان أوسع بكثير مما آل إليه بعد مائة سنة من الاحتلال الفرنسي..

– كان تحقيقه لمذكرات "الحاج أحمد الشريف الزهار"[15] نقيب الشرفاء عرضا تاريخيا للحياة السياسية والعامة خلال الفترة 1754–1830 تناول فيه سيرة الدايات وأعمالهم...

وأخلص فيه إلى أن الدايات الذين تولوا حكم الجزائر– صالحين كانوا أم غير صالحين– هم أفضل بكثير من الحكام الأوروبيين خلال تلك الحقبة التاريخية..

– لقد أهدى المدني كتاب "محمد بن عثمان" إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس، فنوّه به هذا الأخير قائلا "هذا اسم السفر الجليل الذي ألفه المدني، لخص فيه تاريخ الجزائر في العصر التركي... عرض التاريخ بين دلائل العلم ومناهج الفن، وبروح إسلامية لا تعرف إلا الصدق، عربية.. وإذا كان الوطن هو تاريخ الوطن ولا حياة لأمة إلاّ بإحياء نهضتها"[16].

براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي: تحتل المقاومة بأشكالها العسكرية والسياسية والثقافية مكانة هامة في تآليف المدني التاريخية إذ لا يعتبرها مبحثا تاريخيا بل نموذجا إرشاديا (براديقما) يحدد تصوره لتاريخ الجزائر ويرسم نظرته إلى الجزائري. فالمقاومة هي السبيل إلى تجديد الذات والحفاظ على الشخصية وهي الوعاء الذي تبلورت فيه مقومات الأمة الجزائرية. كل التاريخ الوطني يمكن اختزاله في مقاومة الاحتلال الأجنبي.

– يرى المؤرخ الوطني، أن تاريخ الجزائر قديمه وحديثه، سلسلة مترابطة الحلقات، وحدة متكاملة ضمنها تكونت الشخصية الجزائرية بإبعادها السياسية والثقافية. وحين يتعرض لظاهرة الاستعمار يتصورها خرقا لهذه الاستمرارية التاريخية وقطيعة في الوجود التاريخي لأمته. إن يقرّ دوما أن الاستعمار يتنافى مع النمو الطبيعي للأمة الجزائرية وهو رغم طول مدته ظاهرة عرضية في سيرورة الأمة أعاقت تطور مقوماتها الاجتماعية والثقافية.

فالمقاومة المناهضة للاحتلال تجسد صمود الشعب ومواجهته للتحديات، وتسعى إلى تحقيق الوحدة والاستقلال وترمي إلى حماية المقومات الحضارية – الثقافية إنها عنوان الوجود والسيادة والحرية.

المقاومة المسلحة: إنَّها الشكل الأمثل والأداة لمواجهة الاحتلال الأجنبي في القديم والحديث وفق القاعدة "ما يؤخذ بالقوة لا يستعاد إلاَّ بالقوة"، يرددها في كتابه "هذه هي الجزائر". إن الذي حمل المدني على تأليف "قرطاجة في أربعة عصور" هو صمود البربر في وجه الاحتلال الغربي. يصف الاستعمار الروماني "بالداء الوبيل الذي حكم على الشعب بالمهانة والمذلة وحكم على الوطن بالرضوخ والاستسلام"[17].

– يعاتب الملك النوميدي: ما سنيسا لأنه تحول من حليف لقرطاجة في صراعها ضد روما إلى داعية لنصرة الرومان الغزاة". "فلم يخطر في باله ساعتئذ – أنه كان يحفر قبر المغرب

الكبير وأنه كان يهيء استقرار قدم الرومان بالبلاد ليمحُوا استقلالها وليستعبدوا أهلها وليستعمروا شرّ الاستعمار أرضها"[18] هكذا كانت النتيجة في نظره.

– غير أن شعب نوميديا لم يرضخ لهذا الاستعمار الذي أخذ يبدى مخالبه في البلاد. جاء يوغرطة العظيم، فوحد نوميديا كاملة واستولى عنوة على قرطة وأخذ يستعد للتخلص من نير روما فما جاءت سنة 110 ق م حتى أرسلت روما جيشا قويا لمحاربته، فتصدى له وأمعن في قتله. فكسب يوغرطة المعركة الأولى لكن الرومان لم يتقبلوا هذه الاهانة، فصمموا على القضاء على الاستقلال البربري، فأرسلوا جيشا آخر سلك سياسة القتل والسبي والتخريب وقاوم يوغرطة مقاومة باسلة مدى أربع سنوات (110–106 ق م). هكذا انتهت مملكة نوميديا بين الحديد والنار والتضحية والاستشهاد. كان يوغرطة مثالا حيا للجهاد الفاضل في سبيل الحرية والاستقلال.

– ولم تتنه المقاومة في نوميديا إذ "قام حر من أحرارها: تاكفا ريناس يشعل نار الثورة في وجه الغاصبين.. وبعد حرب سجال لا متكافئة، اندحر مرة أخرى الثوار سنة 22 ق م وخيم الظلام الأسود على الوطن وانتصب الاستعمار الروماني في بسائط القطر.. غير أن الجبال المنيعة بقيت محافظة على استقلالها.

– وانتهجت روما سياسة استعمارية قاسية، فالأرض الزراعية الخصبة كانت ملكا للدولة والمعمرين الذين أخذوا يتدفقون على البلاد. فسكنوا المدن واستحوذوا على الحكم والإدارة. وانتشرت حركات الانتفاض لكنها كانت تخمد والاضطهاد يزيد بعدها..." إن الثورة نار متأججه مقرها النفوس والصدور، تبدو أحيانا حامية مستعرة فإذا ما خبت حينا، بقيت في القلوب والصدور، نارًا تحت الرماد إلى أن تهبّ عليها من جديد رياح تحريرية فإذا بها نارا تلظى"[19]

ثم كانت الثورة العارمة التي انطلقت سنة311 م واستمرت إلى نهاية الوجود الروماني في القرن الخامس الميلادي، التحمت فيها الحركة الدوناتية بحركة السركنيسلية[20] والتحمت بهما جماعات العبيد الذين طال عذابهم قرونا... وكان الثوار يعذبون وينكلون بالذين كانوا ينكلون بهم، يقتلون دون رحمة المعمرين الرومان ويحرقون مزارعهم ويحطمون منازلهم... "هكذا وضع الأمازيغ الأحرار أسس الثورة النهائية على الرومانيين الذين أخذوا يتركون البلاد جماعات إثر

جماعات. فحرروا بذلك قسما كبيرا من أراضيهم الزراعية التي عادت إليهم ريثما يحررون الوطن كله..."[21].

انحسر الوجود الروماني على السواحل وما بقي بعدها إلاَّ فترة احتضار سادتها الفوضى والاضطراب إلى أن انتهى ذلك الوجود الأجنبي سنة429 م كأنه لم يكن بعد أن مكث في ربوع البلاد نحو ستة قرون. اعتمدت الثورة العارمة على ثلاثة أسس جمعت في آن واحد: صلابة العقيدة الدينية الإصلاحية ومتانة الروح التواقة دائما إلى الاستقلال والرغبة الجامحة في استعادة الأرض..

– يحكم المدني على الوجود الروماني، معتمدا على شهادات المؤرخين الفرنسيين أنفسهم "بأنه استعمار لم يجن منه البربر أية فائدة مادية أو أدبية، إذ حافظوا على لغاتهم وعوائدهم وفضائلهم القومية عدا قلة قليلة – وعاشوا على هامشه ولم يندمجوا فيه إطلاقا".

–هكذا يكتب المدني تاريخ المغرب القديم بروح وطنية جياشة، يختزله في مقاومة البربر للوجود الروماني ورفضهم للحضارة اللاتينية. إنها رؤية يشوبها التبسيط.

لم تكن أرض المغرب خلاء ولم يكن سكانها جاهلين لما دخلها الرومان. لقد سبق للحضارة الفنيقية أن تغلغلت بعمق في شمال إفريقيا وتفاعلت تفاعلا بينا مع قيم الأهالي. وبعد تدمير قرطاجة سنة 146 ق م واستيلاء روما تدريجيا على البلاد، تفاعل قسم من الأهالي مع الحضارة الجديدة وترومنوا بدرجة متفاوتة حسب انتمائهم الجغرافي والطبقي محافظين في ذات الوقت على بعض سمات الحضارة الفنيقية وبرزت نخبة محلية متلتنتة، فليس من المجازفة أن يتحدث الباحثون عن حضارة رومانية – افريقية.

– دخل بعض الأفارقة في المسيحية وأسهموا في تطورها إسهاما واضحا يدل عليه أعمال طرتاليانوس وقبريانيوس وأغسطين هذه بعض تجليات الرومنة والتنصير لكنها لا تمثل الا وجها من أوجه تاريخ المغرب القديم ولا ينبغي أن يكون اختزالا لسياق تاريخي عرف المد والجزر، الوئام والتنافر، القبول والرفض. على أرض الواقع، عاشت البلاد عدة توترات وصراعات على مستويات عديدة ينبغي احتضارها لكتابة تاريخ شامل يبرز أيضا مواقف الفئات الاجتماعية المناوئة والثقافات المضادة والمذاهب الدينية المنشقة.

يجب التعامل مع الكتابات الاستعمارية بروح نقدية لكن بدون تشنج ولا إقصاء مسبق لأن الهدف هو تجاوزها علميا – لا السجال معها– قصد الرقي بالبحث التاريخي إلى مستوى رصين يفرض نفسه على الساحة العلمية.

– يتحدث أحمد توفيق المدني في كتابه "حرب الثلاثمائة سنة"[22] عن المقاومة المسلحة في العصر الحديث، عصر المواجهة مع الإمبراطورية الإنسانية منذ سقوط غرناطة إلى تحرير وهران والمرسى الكبير سنة 1792 لا شك أن العنوان بذاته يحمل هاجسا وطنيا إسلاميا على غرار حرب 100 سنة التي واجهت فيها المملكة الفرنسية الناشئة الوجود الانكليزي والاسباني على قسم من أراضها.

اختار هذا الموضوع بالذات لأنه "يتعلق بميلاد الدولة الجزائرية الحديثة. دولة ذات معالم معينة وحدود مرسومة فوق تراب تشكلت منه أرض الوطن وتكونت فوقه وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية بعد الوحدة الدينية التي كانت القاسم المشترك الأعظم"[23].

– دولة نشأت بالحديد والنار بإعانة من العثمانيين خلال عصر "تغيرت فيه موازين القوى بين الشرق والغرب... وقفت فيه المسيحية والإسلام وجها لوجه في معركة بقاء أو فناء.. فكان انبثاق دولتنا الجزائرية الأولى.. برزت إلى الوجود وشبت وشابت نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء"[24].

– اتسمت المقاومة في هذا العصر بسمة الدين، فكانت الجزائر: "دار جهاد" ترد هجمات الصليبين الاسبان وغيرهم معتمدة على عزائم شعبها ومساعدة الأتراك المجاهدين. لم يكن للدولة العثمانية في نظر المدني، من غرض سوى حماية المسلمين المغاربة المهددين وتأمين سلامة أرض الإسلام، وكأن إستراتيجيتها اختزلها في العوامل الدينية وحدها. يعتبر الإخوة باربروس منقذين ويتصور تصفية السلطات الشرعية –زيانية وحفصية– تأديبا للخونة الذين تحالفوا مع العدو لتحقيق أغراض دنيئة[25].

– يفرد في كتابه فصولا يتعرض فيها للقرصنة وللهجمات الغربية على الجزائر العاصمة، ويصف المحاولات العسكرية العثمانية من أجل استعادة قاعدتي وهران والمرسي الكبير من أيدي الاسبان، يعرض للعلاقات بين الأستانة و الايالة وبين الايالة والدول الغربية التي كانت تسعى إلى عقد الصلح، كل ذلك للتأكيد على أن الدولة الجزائرية كانت ذات هيبة وأن أسطولها البحري مرهوب الجانب وأن قراصنتها كانوا أبطالا شجعانا.. يرى أنه يقول الحق

ويمجد البطولة ويندد بالخيانة للوطن.. يلتزم بالموضوعية[26]. غير أن شغله الشاغل هو الرد على المؤرخين الغربيين الذين اعتبروا "الجهاد البحري" لصوصية والجزائر المحروسة وكرا للمجرمين ومغارة للسفاكين والدايات قادة مليشيا النهب والفتك والفوضى والعنف.. في الحقيقة، يكتب ملحمة وطنية قائمة على تمجيد رياس البحر والجيش ورجال الدولة، يتصور المواقف التاريخية والأحداث عنوان الفخر والاعتزاز لا مادة تاريخية يعيد بناءها وفق إشكاليات هادئة ورصينة.

– يجب على المؤرخ أن يفكك الكتابات التاريخية القائمة على التبجيل. يحتاج إلى مقاربة جديدة قائمة على التحليل العميق للظواهر التاريخية وإلى مناهج فعالة تساعده على قراءة الظواهر التاريخية بموضوعية. في مطلع القرن السادس عشر، كان الخطر المسيحي جليا إذ أخذت المملكة الإسبانية تستولي على الموانئ الجزائرية الواحد بعد الأخر. ولم تتمكن السلطة الزيانية بحكم ضعفها وتفككها من مواجهة الأطماع الأجنبية. في هذه الظروف، استقبلت مدينة الجزائر الأخوة باربروس استقبال المحررين ونظرت إليهم شرائح عريضة من المجتمع (الأندلسيون ورجال الدين على الخصوص) نظرة المنقذين الذين تحركهم رابطة الدين.

– غير أن الصراع القائم بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الاسبانية لم يكن صراعا بين المسيحية والإسلام فحسب وإلاّ كيف نفسر تحالف آل عثمان مع فرنسا ضد اسبانيا ثم تحالفهم مع انكلترا ضد اسبانيا.. وكيف نفسر تحالف الاسبان بالصفويين ضد آل عثمان. إنه صراع بين دولتين عظميين تحكمت فيه جُملة من العوامل السياسية والأسباب الاقتصادية والدوافع المختلفة ولا يمكن اختزاله في شكل نزاع ديني صرف.

أما القرصنة، فلم تكن جهادا في كل المراحل التاريخية. قبل سنة **1580**، كانت شكلا من أشكال الحرب بين الدول في البحر الأبيض المتوسط وفي المحيطات. ولم تكن حكرا على الجزائر والدول الإسلامية الأخرى بل مارستها المملكة الفرنسية والممالك الغربية بعضها على البعض الآخر..

خلال القرن السابع عشر، انتعشت حركة القرصنة في الايالة الجزائرية بفضل عناية الدولة لها، فتطور الأسطور البحري، وتزايد عدد الرياس والجنود وكثرت الغارات على سفن الدول المعادية لأسباب أهمها أن القرصنة أصبحت موردا ماليا هاما للخزينة. لقد كانت عمليات اقتداء الأسرى وبيع السفن تدر أموالا معتبرة تستفيد منها مؤسسة الدولة وشرائح عريضة في

المدن الساحلية. أما القرن الثامن عشر، فقد شهد تراجعا ملحوظا للقرصنة وأصبحت تجارة الحبوب المصدر المالي الرئيسي لخزينة الدولة. عقد الدايات حينئذ معاهدات صلح مع عدد هام من الدول الغربية تنص على عدم التعرض لسفنها التجارية في البحار... وفي العقدين الأولين من القرن التاسع عشر، عاد قراصنة البحر إلى النشاط لظروف تاريخية خارجية (مثل الثورة الفرنسية والحروب الثورية في أروبا..) ثم نامت نومتها الأخيرة بسبب الضغوط الأوروبية وغيرها من العوامل...

– لم يفرد المدني بحثا خاصا بالمقاومة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي، لكنه يتحدث عنها في كتابيه "كتاب الجزائر" و"هذه هي الجزائر". ينتقد بشدة الاستعمار الفرنسي الذي "ضرب على الجزائر المذلة والمسكنة... وجعلها محكومة بغير بنيها وتوزيع ثروتها على غير ذويها وأبقاها تحت نظام هو شر أنواع الرأسمالية"[27] يصف أطوار المقاومة المعادية للاحتلال خلال القرن التاسع عشر وينوه بأبطالها: الامير عبد القادر الذي أنشأ دولة فتية وأحمد باي والمقراني وغيرهم... وينوه بالثورة المسلحة التي اندلعت في أول نوفمبر 1954. وفي رأيه "ما استقر سيف الكفاح في غَمَدِه يوما فهو دولة بين الأجداد والآباء والأحفاد... يمجد الماضي وينشئ الحاضر ويهيء المستقبل"[28].

المقاومة الثقافية: إنها الشكل الثاني من أشكال المقاومة، تبرز ملامحها عند إخفاق المقاومة المسلحة. يهتم بها المدني بحكم انتمائه إلى جمعية العلماء المسلمين التي جعلت من إحياء اللغة العربية وثقافتها وإصلاح الديانة الإسلامية نضالها الرئيسي.

في العصور القديمة: حافظ البربر على لغاتهم وتقاليدهم ودياناتهم وحين دخلت المسيحية أرض المغرب، اعتنقتها جماعة منهم لأنها كانت تدعو إلى العدل والفضيلة غير أنَّ السلطات الرومانية قابلت هذه الجماعة بالتعذيب والتنكيل، فزادهم ذلك قوة الايمان إلى أن أعلن الامبراطور "قسطنطين" المسيحية دينا رسميا للدولة، فتصور البربر أنهم يستطيعون بواسطة الدين الجديد أن يتخلصوا مِنْ قيد الاستعمار، لكنهم رأوا أن الكاثوليكية أصبحت غلا جديدا يستعمله الظالمون لتأبيد ظلمهم وسلطانهم، فنفروا منها واعتنقوا مذهبا جديدا –الدوناتية– "يدعو إلى إحياء السنة – سنة المسيح رسول الله وإماتة البدعة، بدعة التثليث التي هي اشتراك بالله ونقض لديانة المسيح"[29].

– يخطئ المدني حين يَعْزُو الخلاف بين الدوناتية والكاثوليكية إلى مسألة التثليث (الأب، الابن والروح القدس) ويخطئ – مرة أخرى– حين يربط بين المذهب الدوناتي والمذهب الاريوسي الذي رفض التثليث لأن الأريوسية جاءت إلى المغرب مع الغزو الوندالي..

صحيح أنه توجد بعض الفوارق الفقهية بين الأساقفة الدوناتيين والأساقفة الكاثوليك حول ظاهرة الانتحار وقضية المتخاذلين بشكل خاص، لكن الصراع الحقيقي بين المذهبين سياسي. فالكاثوليك، عن قصد أو غير قصد –كانوا يدعمون سياسية الدولة الرومانية لأنهم يمثلون الجانب الروحي لوحدة الأمبراطورية، يقطعون الطريق على كل انشقاق ديني في المغرب خوفا من أن يتحول إلى معارضة "وطنية" للسلطة الرومانية.

– شجعت الدوناتية طقوسا–مثل تقديس الشهداء وزيارة أضرحتهم والإقبال على الاستشهاد –أخذت صبغة المقاومة الثقافية للوجود الروماني وما نتج عنه من استغلال اجتماعي– اقتصادي واضطهاد. لكن الدوناتيين والدوارين الذين كانوا يستشهدون في المعارك مع الجيش الروماني، لم يستشهدوا لقضية المسيح بقَدْرِ مَا استشهدوا لمناهضة أوضاع الاقتصادية – اجتماعية سيئة للغاية. ذات الأوضاع حتمت حلفا غير معلن تكون بالتدريج بين الكنيسة الدوناتية وحركة سركنسيليون التي التفت حولها شرائح عريضة – فقيرة وغير فقيرة – وتقوى هذا الحلف كلما تقوى حلف الكنيسة الكاثوليكية بالإمبراطورية الرومانية.

ثم ينتقل إلى الحقبة المعاصرة: ليؤكد أن فرنسا عملت منذ احتلالها الجزائر سنة 1830 على محاربة الثقافة العربية فقضت على مراكزها وهجّرت علماءها وسخرت مؤسساتها لمحوها. يقول عن حالة التعليم "رأيتُ الشجرة الكبيرة وقد ذبلت أغصانها وتناثرت أوراقها من شدّة الظمأ واشتاقت قطرة الماء التي هي أملها الوحيد في الحياة وهي الواقية لها من الموت. تلك هي أمة الجزائر وذلك هو اشتياقها للتعلم... ناهيك لأمة تبلغ درجة الأمية فيها نحو تسعين بالمئة من مجموع أفرادها"[30].

– إنها وضعية حالكة غير حالة الحياة الثقافية والتعليمية في العهود السابقة، إذ كانت الحواضر الجزائرية مثل تاهرت الرستمية وتلمسان الزيانية وبجاية الحمادية منارات العلم تكاد تضاهي مثيلاتها في الأندلس والمشرق. صحيح أن العهد العثماني بلغ فيه الجمود الفكري مبلغا "إذ اعتكف العلماء والمتعلمون على العلوم النقلية تاركين العلوم العقلية" غير أن التعليم خلاله كان منتشرا وقلت الأمية بين الطبقات الوسطى والعامة.

– في القرن العشرين، انتبهت الأمة الجزائرية للخطر الداهم فاستفاقت من سباتها ونفضت عنها غبار الخمول، فقاومت مخططات الاستعمار الثقافي ولم تترك لغتها تتلاشى ولم تقطع الصلة بينها وبين أسلافها. قام رجال تخرجوا من جامع الزيتونة أو نهلوا من مناهل الشرق كالأزهر الشريف ومساجد الحجاز والشام بإحياء الثقافة العربية ونشروا الإصلاح الديني فأسسوا المدارس الحرة وأقاموا النوادي وأصدروا الصحف والمجلات. يقول "لقد لعبت جمعية العلماء المسلمين سورا هاما في زيادة النمو الروحي والثقافي لدى الشعب الجزائري عندما حاولت فرنسا القضاء على لغته ودينه.. وأخرجته من عزلته الثقافية وربطته بالأمة العربية"[31].

– إن مساهمة جمعية العلماء المسلمين في استعادة مكانة الثقافة العربية ومقاومة الثقافة الاستعمارية أمر لا ينكره أحد غير أن بناء الثقافة الوطنية في الجزائر ومقاومة التغريب لم يكونا حكرا على جمعية العلماء المسلمين، بل ساهم فيهما علماء ومفكرين تلقوا تعليمهم باللغة الفرنسية أو تحصّلوا على تعليم عربي فرنسي، غير إنهم تفطنوا لأغراض الاستعمار ورفضوا الاستلاب الثقافي وساهموا في أحياء التراث الثقافي الجزائري وتمسكوا بالقيم الثقافية الوطنية.. هذا ما أغفله المدني...

المقاومة السياسية: برزت المقاومة السياسية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، على إثر فشل الانتفاضات الشعبية واستمرت بعد الحرب العالمية الثانية. من العوامل التي ساعدت على ظهورها :

الجالية الجزائرية في المهجر التي تأثرت بالحركات العمالية الفرنسية التي كانت تقاوم الاستغلال الرأسمالي. تبنت الحركة السياسية الجزائرية منذ نشأتها وسائل النضال الحديث وأساليبه

تأثر النخبة الجزائرية بالوعي الإسلامي والتحرري في العالم

رفضت الحركة السياسية الحديثة إيديولوجيا الاندماج ودعت إلى الاعتراف بالشخصية الجزائرية على لسان الأمير خالد الذي يعتبرهُ نموج المناضل الوطني "فالرأي العام الإسلامي في الجزائر قد تكون بصفة لا يمكن إنكارها وهو شاعر كل الشعور بكيانه وهو يريد أن يتمتع بسائر حقوقه ويريد أن يقوم بكل واجباته شأن الشعوب والأمم"[32].

نفهم من تحليلاته أنه لا يعترف بشرعية "دعاة التجنيس والاندماج" لأنهم لا يمثلون في نظره الشعب الجزائر الذي يرفض الذوبان ولا يؤمن بأسطورة "الجزائر فرنسية".

– خلال الثلاثينيات والاربعينان من القرن العشرين، تطورت المقاومة السياسية وساهمت في نشر الوعي الوطني بين شرائح المجتمع الجزائري، فأصبح الجزائري ينادي بكل صراحة، بوجوب المساواة السياسية دون التخلي عن القيم الوطنية. يقول في هذا الصدد : "إن المسلمين الجزائريين يريدون أن يتحصلوا على الحقوق وعلى الحريات إنما مع بقائهم مسلمين يحتكمون في أمورهم الشخصية بما أنزل الله"[33].

لا يولي المدني في كتاباته التاريخية عناية كبرى للكفاح السياسي وإن كان يعترف بإسهامه في بلورة الوعي الوطني وفي تكوين مجموعة عن الإطارات السياسية التي أشرفت على قيادة ثورة التحرير سنة 1954. يُفضّل المقاومة المسلحة ثم المقاومة الثقافية على النضال السياسي ورغم أنه كان من بين إطارات جمعية العلماء الأكثر تسَيُّسًا وقد كان باديسيا في أغلب لحظات نضاله، فإنه كان لا يؤمن كثيرا بجدوى العمل السياسي في مقاومة الاستعمار الفرنسي.. إنها مفارقة نلمحها في شخصية المدني الذي كرس حياته لتدوين مقالات سياسية نارية ضدّ السياسة الاستعمارية في الجزائر والعالم العربي والعالم بشكل عام.

الخاتمة: ولد أحمد توفيق المدني بتونس سنة 1899 من أب وأم جزائريين. هاجرت الأسرة إلى بلاد تونس بعد فشل ثورة 1871. في تونس تكون المدني تكوينا تقليديا وإصلاحيا في المدرسة الأهلية ثم جامع الزيتونة كما درس التاريخ واللغة الفرنسية والرياضيات في المدرسة الخلدونية.

في تونس، اقتحم العمل الصحفي أولا ثم النشاط السياسي إذ كان من الأعضاء المؤسسين للحزب الدستوري الحرّ. وعند نفيه من تونس سنة 1925، استقر بالجزائر العاصمة، فكان يكتب في صحفها الإصلاحية حول مواضيع تتعلق بحركات التحرر في إرلندا والهند وفلسطين والريف المغربي.

وبعد فترة، انخرط في جمعية العلماء المسلمين "لأنها كانت قاعدة لنمو الشعور الوطني والإسلامي" وتقلد مناصب قيادية فيها. خلال سنة 1956، التحق بجبهة التحرير الوطني وعمل في سلكها الديبلوماسي خلال فترة الحرب (1954–1962)، وعند الاستقلال، تقلد مناصب رسمية مثل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية وسفارة الجزائر في العراق وباكستان، ثم أنعكف على البحث في التاريخ إلى أن توفي بالجزائر العاصمة 18أكتوبر1983 عند عهد يناهز 84 سنة.

يحدد المدني مفهومه للتاريخ قائلا: "ما التاريخ في نظري إلاّ عرض وتحليل وحكم. فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه، حي الضمير، يدرس الوثائق والمستندات ويستخرج الحقائق من بين النصوص ويستمع بإمعان إلى ما يقوله هؤلاء وما يقوله أولائك، ثم ينظر في الملابسات ويدرس المحيط. فإذا ما أسفر وجه الحق ناصعًا، أصدر حكمه عادلا، لا عاطفة ولا رياء ولا محاباة" (حرب 300 سنة ص8).

– يحيل هذا التعريف– رغم صفة الموضوعية المزعومة– إلى الرؤية الوضعانية التي سادت التأليف التاريخي خلال القرن 19. وتتجلى وطنيته في نظرته إلى الماضي "إنما التاريخ الحقيقي هو تجسيم العصر الماضي حتى يصبح وكأنه الحاضر المشاهد وتصوير الحياة القديمة صورة حقيقية وحشر عوامل نهضتها وأسباب انحطاطها وربط الأسباب والنتائج..." (قرطاجة ص 8). يهدف الخطاب التاريخي إلى إبراز حقيقة الأمة وعبقريتها. فالبربر جنس متميز لا ينحدر من أصول جرمانية أولاتينية كما يزعمه المفكرون الاستعماريون. أنفتح البربر حضاريا على الفينيقيين ورفضوا الوجود الروماني، خاصة والغربي عامّة، لأنه وجود غريب عنهم ويتنافى وذاتيتهم.. إلى أن جاء العرب الفاتحون فامتزجوا بهم دون أن ينصهروا فيهم – وانتهى إلى الحضارة العربية – الإسلامية فتأثر بها وأثر فيها،..

– تكمن أهمية المقاومة التي طغت على الكتابة التاريخية لدى المدني في أنها السبيل الأمثل للدفاع عن الهوية والاستقلال. فإنها ترمز إلى الاستمرارية التاريخية وهي التعبير لعبقرية القوى الحيّة في الأمة. إنها تهدف إلى الحرية والسيادة والاستقلال: قيم وطنية ما أنفك الشعب الجزائري يتمسك بها.

– تتخذ المقاومة أشكالا متعددة عبر العصور: مقاومة مسلحة، مقاومة سياسية حين تقتضى الظروف ومقاومة ثقافية دفاعا على الشخصية الجزائرية. كل ذلك من أجل صياغة تاريخ نقيض للتاريخ الاستعماري الذي ينفي وجود مقومات وطنية في ماضي الجزائر.

الهوامش:

1– سعد الله (أبو القاسم) : تاريخ الجزائر الثقافي: ج 7 ص 419...

2– المصدر نفسه : ص 49.

3–انتقد محمد الطاهر فضلاء في كتابه "التزيف و التحريف في كتاب حياة كفاح". قسنطينة 1982 أقوال المدني و رَدّ عليه هذا الخير في كتاب "رد أديب على حملة الأكاذيب" لم ينشره

4– حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا، صفحة 8.

5– قرطاجنة في أربعة عصور، صفحة8.

6–كتاب الجزائر... ص 5.

7– مجلة "الشهاب : عدد مارس 1932.

8– صدرت الطبعة الأولى في الجزائر سنة 1927.

9– قرطاجة ص 107.

10– المصدر نفسه : ص 144.

11– المصدر نفسه : ص 160.

12– كتاب الجزائر : ص 77.

13– المرجع السابق : ص 160.

14– محمد عثمان باشا – ط 2 – الجزائر 1986 – ص 7.

15– المصدر نفسه : ص 6.

16– مذكرات الشريف الزهار (تحقيق) الجزائر 1988 (ط 2).

17– مجلة الشهاب : سبتمبر 1937.

18– صدر هذا الكتاب في الجزائر سنة 1927.

19– المدني "أوراس محطم الاستعمار الروماني"، مجلة الاصالة : عدد 60–61، الجزائر أفريل 1977.

20– المصدر نفسه

21– المصدر نفسه

22– يسميها حركة "الجواسين" لإضفاء الشرعية عليها و تسميها المصادر حركة "الحوامين" أو "الدوارين" لأنها كانت تجمع عصابات تحيط بمزارع المعمرين قبل تخريبها.

23– «حرب الثلاثمائة سنة 1492–1792: ط2، الجزائر 1976 (الطبعة الأولى صدرت 1968).

24– المصدر نفسه ص 7–10

25– المصدر نفسه، ص 10–15.

26– المدني : تلمسان بين الزيانيين و العثمانيين، مجلة التاريخ، عدد 11، الجزائر 1981.

27– المرجع السابق، ص 11.

28– "هذه هي الجزائر"، صدر بالقاهرة سنة 1957، ص 50

29– المصدر نفسه، ص 6.

30- كتاب الجزائر، ص 293.

31- المصدر نفسه، ص 379.

32- المصدر نفسه، ص 67.

33- المصدر نفسه، ص 352.